

معالم الهجرة ودعاء الاستسقاء

الإمام الشهيد البوطي

الجمعة، 04 محرم، 1432 الموافق 2010/12/10

الحمد لله ثم الحمد لله الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، سبحانك اللهم لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله وصفيّه وخليته خيرٌ نبيٍّ أرسله، أرسله الله إلى العالم كله بشيراً ونذيراً، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاةً وسلاماً دائماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين، وأوصيكم أيها المسلمون ونفسي المذنبه بتقوى الله تعالى.

أما بعدُ فيا عباد الله ..

بالأمس تلاقى آخر يوم من عام هجري مضى وأول يوم من عام هجري أقبل، تلاقيان كما يتلاقيان في كل عام في جوٍّ صامتٍ متواضع. إنما عبّرت العطله التقليديه التي تمر في كل عام بهذه المناسبة عن الابتهاج به وعن الاحتفال فيه، ولو ددّت أن لو كان هذا الصمت صمت تواضع، أن لو كان هذا الصمت صمت خشيةٍ وخشوعٍ وإقبالٍ إلى الله سبحانه وتعالى إذاً لكان في ذلك ما يقربنا إلى الله عز وجل زلفى، ولكنه - كما تعلمون - صمت إعراض، صمت يعبر عن اللامبالاه.

ومعلمة الهجرة معلمة كبيرة كبيرة في تاريخ أمتنا الإسلامية يا عباد الله، معلمة الهجرة هي الفيصل بين عهدٍ من الفقر والظنك والشرد وعهدٍ من الغنى والعزة والمجد لهذه الأمة، هي فيصل بين عهد من التفرق والضيعة والهوان والاستخذاء وعهدٍ من النصر والتوفيق والغنى والسؤدد والنصر.

معلمة الهجرة - يا عباد الله - هي المعلمة التي تبرز فيها الساعة التي وُلدت فيها هذه الأمة وولدت فيها دولة الإسلام، لم يكن للعرب قبل ذلك وجود إنما كان وجود قبائل تتعارض وتتخاصم وتحارب. أمة الإسلام إنما وُلدت وولدت مع هجرة المصطفى ﷺ. دولة الإسلام إنما ولدت مع استقرار رسول الله ﷺ في المدينة المنورة. فيا عجباً كيف تعتر أمة بتاريخها وبوجودها الحضاري ثم يمر هذا اليوم؛ يومٍ نستقبل فيه عاماً هجرياً جديداً دون التفاتٍ إليه، دون اهتمام به. إن هو إلا عطله تقليديه وربما تبعثها كلمات تقليديه أيضاً. لا أريد أن أقارن بين هذه المناسبة ومناسبات أخرى لأني لا أريد أن نزيد مشاعرنا ألماً وحزناً، ولكني أريد أن أقول:

أفحجبت هذه الأمة عن تاريخها؟ أفحجبت هذه الأمة عن معين عزتها؟ أفحجبت عن معين نصرها؟ أفحجبت عن معينها الحضاري الذي تلاً في العالم كله وكسف شمس الحضارات الزائفة الأخرى.

عباد الله: لا أريد أطيل في أمر الحديث فيه ذو شجون ولكني أريد مني ومنكم أن نتأمل في هذه المناسبة فنقتطف ولو عبرة واحدة من العبر الكثيرة التي تتزاحم في معلمة هذه الهجرة، هجرة المصطفى ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة. إنها تحدثنا قائلة إن الأمة لا يمكن أن تتبوأ ساحة النصر ولا يمكن أن ترتفع إلى ذرى المجد إلا إن ضحّت بأموالها وأوطانها وكل ممتلكاتها المادية في سبيل المعتقد الصحيح، في سبيل المبادئ والقيم. إن هي فعلت ذلك أعاد الله عز وجل إليها أوطانها المسلوقة وأعاد إليها المال الذي تبخر وضاع بحسب الظاهر وأعاد إليها ثرواتها مضروبة بأضعاف أضعاف. أما إن كانت من الغباء بحيث فُتنت بالمال الذي تحت يدها، فُتنت بالأرض التي تمشي فوقها، فنتت بالقصور والأوطان ثم أهملت المبادئ، أهملت القيم، أهملت المعتقد المتفق مع حقائق الكون والإنسان والحياة فلربما فرحت هذه الأمة أياماً معدودة بالمال الذي تمتلكه، فرحت بالأرض التي تغدو وتروح فوقها ولكن المال سيذهب مع ذهاب القيم، ولكن الثروات تذهب مع ذهاب المعتقد والقيم، ولكن النصر لا بد أن يتحول إلى خذلان مع ذهاب ضمانات ذلك من المبادئ والقيم. هكذا تنطق معلمة الهجرة - هجرة المصطفى ﷺ - من مكة إلى المدينة.

ألم يضحى ذلك الرعيل الأول أصحاب رسول الله ﷺ بالمال الذي يملكون؟ ألم يضحوا بالأوطان التي كم كانت نفوسهم متعلقة بها؟ ألم يضحوا ببقايا الأرحام حتى. في سبيل المبادئ التي آمنوا بها، في سبيل المعتقد الذي اعتزوا به، في سبيل التمسك بالعهد الذي أخذوه على أنفسهم تجاه مولاهم وخالقهم سبحانه وتعالى؟ أفضيعهم الله عز وجل بعد ذلك وقد آثروا الباقي على الفاني، آثروا مرضاة الله سبحانه وتعالى على كل ما دون ذلك؟ ألا تعلمون، ألا تذكرون أن الله عز وجل أعاد إليهم أوطانهم كما كانت وأعاد إليهم معها أوطاناً كثيرة أخرى؟ ألا تذكرون، ألا تعلمون أن الله سبحانه وتعالى أعاد إليهم أموالهم وأضعاف أضعاف ذلك، أغناهم بعد فقر، وحدهم بعد تفرق، نصرهم بعد خذلان. ما هي القيمة التي بذلوها في سبيل ذلك؟ إن القيمة لم تكن إلا هذا الذي ذكرت لكم أيها الإخوة. ابتلاهم الله عز وجل وامتنحهم. أيؤثرون الفاني على الباقي أم يصدقون الله عز وجل فيما عاهدوه عليه؟ فكانت النتيجة أن نجحوا في الابتلاء. أعرضوا عن الوطن، أعرضوا عن المال، أعرضوا عن المدخرات، أعرض كل واحدٍ منهم عن مسقط رأسه وكم كان يحن إليه لكن حينه إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى كان هو المتغلب.

هذه العبرة كافيةٌ أيها الإخوة، ليت أننا نفتطفها سلوكاً ولا نلوكها كلمات نردها كما أرددها الآن في المناسبات. نحن ابتلينا أيها الإخوة بذلٍ بعد عز، ابتلينا بفرقة بعد وحدة وتآلف، ابتلينا بخذلان بعد نصر لكن إلام يعود ذلك كله؟

دعوني ممن يسجن نفسه بين جدران المعاني المادية المحصورة بل يسجن عقله في دائرة المعالم المادية التي هي جنْدٌ من جنود الله عز وجل، دعوني من هذا، ولكن تعالوا إلى الفضاء الرحب، تعالوا إلى المنطق، تعالوا إلى ما يقوله التاريخ، تعالوا إلى ما تقوله العبرة. العبرة تنطق بهذا الذي ذكرت لكم. وليس بيننا وبين أن يتحول فقرنا إلى غنى وأن يتحول شتاتنا وتفرقنا إلى تضامن واتحاد، ليس بيننا وبين أن يتحول خذلاننا إلى نصر إلا أن نعود إلى النهج الذي ألزم به أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم أنفسهم.

لقد كانت معجزة النصر التي أدركت ذلك الرعيل الأول أضعاف وأضعاف المعجزة التي ننتظرها والتي ستتحقق إن نحن سرنا على النهج الذي سار عليه أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم. هذه العبرة أذكر نفسي وأذكركم بها. ولقد ألزم الله عز وجل ذاته العلية عباده الذين يسرون في هذا المنهج أن يجعلهم يتبوءون قيادة العالم، يتبوءون أعلى المناصب والرتب بين الأمم وبين الحضارات المختلفة.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً) [النحل : 97].

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

[النور : 55].

هذا كلام الله عز وجل، كلام ربنا الذي لا يلحقه خلف قط.

وبعد - يا عباد الله - تعلمون أننا قد دُعينا إلى إقامة صلاة الاستسقاء في هذا اليوم، ونظراً إلى أن ميعاد هذه الصلاة متداخلة مع صلاة الجمعة كما ترون فلسوف نسير في تنفيذ هذا الذي دعينا إليه على النحو التالي: ستكون الخطبة الثانية خطبة استسقاء، ننفذ فيها السنة المأثورة عن المصطفى ﷺ ونكثر من الالتجاء إلى الله عز وجل بالتضرع والدعاء ثم إننا نصلي كالعادة ركعتي الجمعة ثم نتبعهما بركعتي صلاة الاستسقاء وهي كصلاة العيد تماماً ليس بينهما أي فرق، وهكذا نكون قد جمعنا بين هاتين الشعيرتين، صلاة الجمعة التي تحتضن في الوقت ذاته صلاة الاستسقاء.

أسأل الله عز وجل أن يوفقني وإياكم لأن نفتح قلوبنا طاهرة من الشوائب نقية من التعلق بالسوى وأن نتوجه بها منكسرة ذليلة إلى مولانا وخالقنا عز وجل ونحن نعلم يقيناً أننا لسنا أهلاً لاستجابة الدعاء ولكن كرم الله لا يحده شيء. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

* * *

وبعد لا يقولون قائلًا ها هم المشايخ قد استسقوا فلم يسقوا أين هي الأمطار؟ لا يقولون قائلًا إنها حقائق علم وليست مسائل دين لا يقولون ذلك قائل، فنحن ندعو الله لأننا عبده ولأن مهمتنا أن ندعوه أما الاستجابة فنحن نعلم أننا لسنا أهلاً للاستجابة، إن استجاب فبكرم استثنائي يستجيب، إن استجاب فبحالة استثنائية يستجيب الله عز وجل لنا والشأن فيما عرفنا من سننه أن لا يستجيب دعاءنا للأسباب التي عرفتم، نعم نحن عبده في كل حال، قال قائلهم إن المشايخ ينتظرون أخبار الأرصاد فإذا علموا أن منخفضاً جويًا سيأتي بعد أيام أسرعوا إلى صلاة الاستسقاء ليربطوا الأمطار بدعائهم، يا عجباً يا عجباً لإنسان حُجب عن الله إلى هذا الحد، من الذي يُسيّر السحاب؟ من الذي يهطل الأمطار من؟ هو الله سبحانه وتعالى هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً هو الذي يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، كل ما تسمعون من قوانين للأرصاد البحار الأبخرة السحب جند من جنود الله، يا عجباً لمن يرى العربة كيف تدور عجالاتها ويجعل نظره محبوساً في هذه العجلات ويعطيها الفاعلية ولا ينظر إلى من يقود، اللهم إنا نعوذ بك من غباءٍ يحول بيننا وبين الفكر والعقل، إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون.